

الأسطوري و الفلسفي

قراءة في بدايات التفكير الانساني

الأستاذ كاملي بلحاج - جامعة سيدي بلعباس -

يدرك المتأمل في الفكر الإنساني القديم أن الأساطير ليست مجرد حكايات خرافية لا طائل من ورائها كما يعتقد كثير من الناس، بل هي نتاج فكري ووعي معرفي استخدمه الإنسان الأول ليعبر فيه عن فلسفته ونظريته للحياة والموت والكون، والصراع بين الخير والشر، وي طرح من خلاله تساؤلاته عما يراه من تناقضات وصراعات بين الكائنات والأشياء.

لقد جهد الإنسان نفسه دوما في كشف حقيقة الوجود والحياة والبدايات والنهايات وشغلته هذه التناقضات والصراعات ردحا من الزمن. وكانت وسيلته حين ذاك مرتبطة بالمرحلة التاريخية لتطوره النفسي والعقلي وبداية تشكل وعيه المعرفي.

اعتقد الإنسان في البداية -على حد رأي جيمس فرايزر - أن العالم بكل مظاهره المتعددة يخضع لترايبطات وقواعد معينة، وأن معرفته بتلك القواعد و الترابطات تساعده على فهم الكون و ظواهره

و بالتالي إخضاعها لرغباته ومصالحه فهو، على سبيل المثال، يستطيع استجلاب المطر عن طريق ممارسات سحرية معينة تدفع الطبيعة مجبرة للاستجابة، كما أنه يستطيع دفع الكوارث، والقضاء على الأعداء وشفاء الأمراض بالطريقة نفسها، وقد تكونت لديه عبر القرون، ومن خلال تكرار هذه الممارسات، مجموعة من القواعد والمعارف السحرية (المرحلة السحرية).

لم يكن الإنسان في هذه المرحلة يستعين بأية قوى خارقة إلهية من أي نوع ، لإيمانه المطلق بأن تسلسل الأحداث والأخذ بأسبابها وبلوغ نتائجها يخضع لقواعد معينة، هي جزء أصيل من الطبيعة ذاتها.

وبعد تاريخ طويل من البحث الشاق والممارسات المليئة بالألم والفشل في السيطرة على الطبيعة والعالم بواسطة هذا العلم الزائف (السحر) اتجه الإنسان إلى الدين أو بالأحرى إلى المعتقدات ملتصقا فيها نهجا آخر، معبرا عن وعي معرفي في طريق التشكل. فإذا كانت الطبيعة قد تمردت حتى الآن على الإنسان، مثبتة عدم خضوعها لتلك القواعد و الترابطات المفترضة ، فلا بد من وجود قوى أخرى خارقة تقف وراء هذه التناقضات والمظاهر المتبدية لهذا الكون، قوى إلهية قادرة وفاعلة، بل ومسيطرة على الكون والإنسان والأشياء، وبذلك بدأت مرحلة جديدة تتميز بالتقرب لتلك القوى واستعطافها واجتذاب ميلها، ومحاولة فهم رغباتها وطرق استرضائها. وهاهنا بدأت قصة المعتقدات أو الديانات بشقيها : الاعتقاد الذي يستخدم الأسطورة كأداة للمعرفة والكشف عن المحبوعات، والطقوس التي تهدف إلى استرضاء الآلهة من خلال العبادات والتقرب منها.

وانطلاقا من هذا الوعي المبكر للفكر الإنساني تشكلت الأساطير كنموذج مقدس من التفكير في القوى المتحكممة في الكون الفاعلة فيه، المؤثرة في حياة الإنسان وعالمه، فهي شكل من أشكال التفكير المقدس أو « حكاية المقدس، ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان»¹ إنها أسلوب في المعرفة والكشف عن الحقائق بغية إيجاد نظام معقول

ومفهوم الوجود، يقتنع به الإنسان ويجد مكانته الحقيقية ضمنه، ويؤدي دوره الفعال فيه، فهي(الأساطير) الإطار الأقدم للتفكير الإنساني المبدع، الخلاق، الذي قاد البشرية على طول الأزمنة الغابرة، إلى العلوم الحديثة و المنجزات الحضارية الراهنة.

إلا أن الفكر ، كما يقول الفلاسفة لا يقف عند نقطة معينة ولا يطمئن إلى نتيجة، أو يركن إلى معرفة يظنها مطلقة فهو في وثبة دائمة وحركة دائبة تتجاوز أبدا ما وصلت إليه،ولذا تهاوت الآلهة وانتهى عصر الأساطير تحت مطارق الفلسفة والعقل ، وتجرع سقراط السم جزاء تمرده على آلهة اليونان.

لكن هذا لا يعني أن الأسطورة والفلسفة شيان مبتعدان أو متناقضان، فهما يدوران حول موضوعات جديدة وشمولية مثل التكوين والأصول والموت والعالم الآخر أو ما يسمى عند الفلاسفة بالميتافيزيقا ، ومعنى الحياة وسر الوجود ،الخير والشر وغيرها من المسائل الكبرى التي استقطبت التفكير الإنساني منذ القديم ، ومن ثم يمكن القول « إن همّ الأسطورة والفلسفة واحد، ولكنهما تختلفان في طريقة التناول والتعبير. فبينما تلجأ الفلسفة إلى المحاكمة العقلية وتستخدم المفاهيم الذهنية كأدوات لها، فإن الأسطورة تلجأ إلى الخيال و العاطفة والترميز ، وتستخدم الصور الحية المتحركة»² لتعبر عن وعي الإنسان وعن طفولة الفن و الفكر عموما.

ومع تطور العلوم وتبلور المناهج ونزول الفلسفة إلى معترك الحياة مع مطلع العصور الحديثة وبالأخص في عصر الاستنارة في القرن الثامن عشر أدى ذلك إلى ازدياد الأسطورة وإنزالها من مرتبتها بوصفها سردا مشوّها للأحداث أو بوصفها أحاديث العامة وحكاياتهم المسلية، لما تحتويه من عناصر غيبية تتناقى والمنطق السليم، الذي وصل إليه العلم .

إلا أن تشعب العلوم وظهور العديد من المذاهب الفلسفية والفكرية في مطلع القرن التاسع عشر، قد جلب ثورة أدبية وجمالية أعادت للأساطير مكانتها كشكل من أشكال التعبير الإنساني التي ينبغي الاهتمام بها، فما لبثت الرومانتيكية أن خطت خطوات بعيدة في النظر للأساطير بوصفها مصدرا لأفكار الأولين وملهمة الشعر والفن عندهم، فهي « الدين والتاريخ والفلسفة جميعا عند القدماء، وهي ليست فكرة مبتدئة أو خاطئة، بل إنها فكرة بدوية تاريخية صبغت بصبغة الإطناب والمغالاة إظهار أهمية تلك الحادثة الحقيقية في جيل زال أثره من ذهن الناس»³، وهكذا شأن الإنسان مع كل ما مضى من أفكار وحقائق وتصورات.

ثم اتجهت إليها العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، تبحث خلف أشكالها عن معانيها العميقة ورموزها الكامنة لعلها تعين على فهم آليات التفكير عند الإنسان الأول وتشكل تصورات ووعيه لما يحيط به من أشياء. وهكذا قدمت الأساطير لهذه العلوم وغيرها مادة قيمة لا تقدر بثمن، وغدت منها ثراً لهذه العلوم ومصدرا هاما من مصادرها بل وأصبحت فرعا من فروعها المعرفية أطلق عليها اسم الميثولوجيا تعنى بدراسة الأساطير وتفسيرها.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر والى يومنا هذا ، ظهرت اتجاهات ومدارس مختلفة تهدف إلى تقديم تفسيرات ونظريات حول الأسطورة وبيان دلالتها ورموزها وبواعثها ووظائفها ، إلا أن معظم هذه المدارس قد وقعت تحت تأثير اتجاه أصحابها مما جعلها أحادية النظرة، بعيدة كل البعد عن النظر إلى الأساطير بوصفها الرحم الذي ولدت منه الفلسفة والعلوم . وقد كانت الأسطورة في الحضارات القديمة تقوم بالدور نفسه الذي تقوم به الميتافيزيقا في الثقافات المتطورة التي أعلنت من شأن الفلسفة، غير أنها تعالج

هذه القضايا بطريقتها الخاصة معتمدة على الرمز والحكي والشخصيات والصور الحسية، مستكملة ذلك كله بالطقوس والشعائر ذات المعنى العميق وهذا يعني أن « كلاً من الأسطورة والفلسفة والعلم يستجيب على طريقته لمطلب النظام، أي لمطلب الإنسان في أن يعيش ضمن عالم مفهوم ومرتب، وأن يتغلب على حالة الفوضى الخارجية التي تتبدى للوعي في مواجهته الأولى مع الطبيعة. فالفلسفة تنتج نظاماً مترابطاً من المفاهيم التجريدية يدّعي لتفسير العالم»⁴ وفي مقابل هذا النظام من المفاهيم الفلسفية والعلمية، فإن الأسطورة أيضاً تعتمد من جانبها على خلق نظامها الخاص ومفاهيمها الخاصة، وهو نظام قوامه الآلهة والقوى الخفية والماورائية التي يعتمد بعضها على بعض أيضاً.

والأسطورة في دأبها لخلق هذا النظام، تعمل على تأسيس خزانها لا ينضب معينه من وسائل الترميز والشعائر، وتفتح الباب واسعاً أمام الوعي واللاوعي، وأمام الحقيقة والخيال، ومن هنا جاءت سطوة الأسطورة وسلطانها على النفس، حتى في مرحلة العلم والتكنولوجيا التي نعيشها اليوم.

فالأسطورة كالفلسفة تطلعننا على تلك الوحدة بين الطبيعي المرئي والميتافيزيقي الغيبي، بين الحي المتحرك والجامد الميت، بين الإنسان وبقية مظاهر الحياة. لكن النظام الذي تخلقه الأسطورة يختلف عن النظام الذي تخلقه الفلسفة، فهو (النظام الأسطوري) ليس نظام العقل المتعالى الذي يجعل نفسه خارج الأشياء، بعيداً عنها، يتأملها ويفسرها ويتحدث عنها عن بعد، بل هو النظام المتعدد الأبعاد الذي لا يستطيع أن يرى نفسه خارج الأشياء أو بعيداً عنها، نظام مرتبط بحركة الأشياء وحياتها.

إن التمييز الذي يصنعه العقل بين المدركات والإنسان أو بين المفاهيم والأشياء، سرعان ما يذوب من خلال الأسطورة التي تعيد الربط بين طريقي الوجود (الآلهة - الإنسان - الكون) وتكشف أمامنا تلك العلاقات والروابط الجامعة لكل ما يتبدى في وعينا.

ومن هذا المنطلق فإن ما « يفرق متلقي الأسطورة في القدم عن دراسة نظام فلسفي أو نظرية علمية في العصر الحديث، هو أن متلقي الأسطورة لا يشعر بأنه قد أضاف إلى معارفه شيئاً جديداً، وإنما قد غدا أكثر توافقاً وانسجاماً مع نفسه ومع العالم. ذلك أن ما تنقله الأسطورة من معانٍ لا يشبه الوقائع أو المعلومات الدقيقة. إنه إيجاز لا إملاء، وإشارة وتضمين لا تعليم وشرح وتلقين»⁵ وعلى الرغم مما يذكره البعض في هذا الزمان من سوء عن التفكير الميثولوجي أو الأسطوري كونه لا عقلي ولا منطقي، فإن الخيال الذي أوجده ما يزال تلك الملكة التي تمكن العلماء من الوصول إلى معارف جديدة، ومن السفر إلى أماكن بعيدة والمشى على القمر، وهي إنجازات لم تكن ممكنة من قبل إلا في عالم الأساطير وقد قال هيجل في هذا الصدد موضحاً العلاقة بينهما ان « الأسطورة تعبير عن عجز الفكر الذي لا يستطيع أن يقيم ذاته على نحو مستقل»⁶ وهذا يعني أن الأسطورة والفلسفة، وإن اختلفا في الطريقة، فهما يلتقيان في توسيع مداركنا والعيش في هذا العالم بكثافة وحضور دائم.

ومما يشير إلى هذا الالتقاء منذ الزمن القديم، أن فلاسفة الإغريق الأوائل من أصحاب المدرسة الأيونية قد تأثروا بشكل خاص بأساطير ديانة الأسرار الأورفية ولاسيما تصوراتها الماورائية، وعلى رأسهم انكسمندر الذي يقال أنه نزع عن الإله الأور في عباءته الأسطورية (الدينية) وحوله إلى مفهوم فلسفي، « وتأثر الفلاسفة الفيثاغورية بالأساطير الأورفية إلى درجة يصعب معها أحياناً التفريق بين العناصر الفيثاغورية والعناصر الأورفية وخصوصاً عندما ننظر إلى الأفكار المتعلقة بتناسخ الأرواح ومبدأ الثواب والعقاب

في الحياة الأخرى، وما إليها من الأفكار والمبادئ و التحريمات والرموز المشتركة بين هذين النظامين » 7، ويتجلى هذا التأثير بشكل واضح في فلسفة إمبيدوقليس .

يتبين مما سبق أن الطابع الفلسفي للأسطورة، وأثرها الفعال في نقل الأفكار المجردة وتثبيت المعتقدات والطقوس ، يفسر لنا تلك العلاقة المصيرية بين المعتقدات والفلسفة والأسطورة وللإشارة فقد كانت الميثولوجيا تسمى « الفلسفة المعمرة» 8 و بحسب هذه الفلسفة، فإن هناك عالم آخر مواز لعالمنا لكنه أكثر غنى وقوة وديمومة منه، وأن كل حقيقة أرضية هي عبارة عن ظل باهت لنموذجها الأصلي، و طرازها الأولي، وهي نسج غير مكتمل ، بل في بعض الأحيان نسخ مشوهة، ومن ثم فإن الكائنات الحية ، لا يمكنها تحقيق إمكاناتها وطاقاتها إلا بالمشاركة في تلك الحياة الإلهية، وهو ما قدمته الأساطير بالتفصيل، كي تمكن البشر من محاكاة تلك الكائنات الفائقة واختبار تجربة الألوهية بأنفسهم. وهذا يعني بدوره أن الحديث عن سلوك الآلهة، كما ورد في العديد من الأساطير لم يكن لغرض التسلية والترجيع بل كان الغرض منه مساعدة الإنسان على تحقيق ذاته من خلال محاكاة الآلهة.

الهوامش

- 1 فراس سواح: الأسطورة والمعنى دار علاء الدين سوريا ط 1 1997 ص 14.
- 2 فراس سواح: الأسطورة والمعنى دار علاء الدين سوريا ط 1 1997 ص 13.
- 3 محمد عبد المعيد خان، الأساطير والحرفات عند العرب دار الحداثة -لبنان- ط3 1981 ص20.
- 4 ينظر فراس السواح، الأسطورة والمعنى ص 21.
- 5 فراس السواح، الأسطورة والمعنى ص 22..
- 6 ثيودور اويزيمان: تطور الفكر الفلسفي، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة العربية ص15.
- 7 فراس السواح، الأسطورة والمعنى ص 23
- 8 كارين أرمسترونغ: تاريخ الأسطورة -ترجمة وجيه فانصو -الدار العربية للعلوم -لبنان ط1 2008 ص 10.